اللورد بلفور ومقامه العلمي

(١٨٤٨ — ١٩٣٠)

١

لو كان اللورد بلفور سياسيًّا كسائر رجال السياسة الذين توفوا حديثاً لما كان يجد له مقاماً بين التراجم التي تنشرها مجلة علمية كالمقتطف . ولكنهُ كان من اولئك الافراد القلائل الذين جمعوا الى دهائهم السياسي وزعامتهم الحزبية وبراعتهم الخطابية تفوقاً في ناحية او اكثر من نواحي الفكر . في هذا الصف نضع هوفر رئيس الولايات المتحدة الاميركية وبانليفه الوزير الفرنسي واللورد بلفور الراحل . فالاول مهندس كبير اشتهر بهندسة التعدين علماً وعملاً والثاني طالبٌ رياضي ممتاز والثالث حام طوال حياته الطويلة على الشقة التي تقع بين العلم والفلسفة فلا هو جاء فيلسوفاً يُعَدُّ مع الفلاسفة ولا عالماً يحسب بين العلماء. ولكن صفاء فكرهِ ودقة نظره وشدة ذكائه صفات جعلت منهُ رجلاً يوحي الى العلماء والفلاسفة بالآراء والافكار وصخرةً نجاةٍ في بحر الدولة المضطرب يلجأ اليه رجال العلم حين الحاجة الى مَنْ يدرك قيمة العمل الذي يعملونهُ واثرهُ في الصناعة والاجتماع وما على الدولة من الواجب في تأييدهم

قال افلاطون في جمهوريته ان الحاكم الصالح هو الرجل الذي يدرك الخير الاعظم فيجعلهُ مثالاً يبني عليهِ بناء الدولة في نظامها والافراد في سلوكهم . هو الرجل الذي يقضي معظم الوقت في التأمل الفلسفي ولكنهُ اذا حانت الساعة يستطيع ان يتحمّل اعباء السياسة ومهام الحكم حبًّا بخير بلاده ولكنهُ يفعل ذلك كواجب متحتم عليهِ لا كعمل يقصد للباهاة به

والكاتب الذي يحمل القلم ليكتب طرفاً من سيرة اللورد بلفور لا يستطيع أن يتناسى قول «الجمهورية» هذا . لانهُ اذا كان التاريخ قد عرف رجلاً اقترب بعض الشيء من تحقيق المثل الاعلى الذي رسمهُ افلاطون فهذا الرجل هو بلفور . بحدثنا التاريخ عن وزراء ورؤساء وزارات كانوا كتاباً وعلماء ولكن من لنا بين رؤساء الوزارات السابقين برجل جعل الفلسفة همهُ الاوّل وهو لا يزال طالباً طريَّ الاهاب . من لنا برجل اشرف على مجلة فلسفية نقداً لمذهب كانت كان من شأنهِ ان يحمل بعض تلاميذ كانت المتازين — مثل جون وطسن وادورد كايرد — على الردّ عليهِ ، وهو لا يزال دون الثلاثين . من لنا برجل يؤلف وينشر وهو مضطلع

اللورد بلفور

LORD BALFOUR

بمهام أعلى المناصب العامة كتباً فلسفية مثل كتاب «الدفاع عن الشك الفلسفي» وكتاب «الالوهية والفكر: درس في المعتقدات الشائعة» وكتاب «اركان الاعتقاد» المشهور

ولكننا والحق يقال لا ندري كيف نطل اقدام هذه الشخصية الممتازة بصراحتها ومحبتها للحق وترفعها عن الدنايا، المثقفة باساليب البحث العلمي الراسخة في اصول المنطق على تصريح خطير كتصريح بلفور في شأن الوطن القومي الفلسطيني مع انهُ يدري ان اليهود المقطوعة للعرب في عهد سايق لهذا التصريح تاتيه. الا ان تكون الناحية السياسية قد سطت في نفسه على الناحية الفلسفية لما رأى ما حلَّ ببلاده من المحن فرأى في هذا التصريح مخرجاً ولو ضيقاً منها!

على اننا أخذنا على نفسنا عدم الخوض في الناحية السياسية من حياته وهي طويلة مفعمة بالحوادث العظيمة تشغل ما يزيد على نصف قرن من تاريخ بلاده بل من التاريخ العالمي شغل في اثنائه اعظم مناصب الدولة في الخارجية والبحرية والمالية ورآسة الوزارة وزعامة مجلس النواب ومؤتمر الصلح بفرسايل ومؤتمر وشنطن البحري. فلنعد الى ما قيل فيه من الناحية العلمية. وقد عنيت بها مجلة نايتشر عناية خاصة فطلبت الى نفر من رجال العلم الذين صادقوهُ او زاملوهُ او تلمذوا لهُ ان يصفوا علاقاته بمختلف المنشآت العلمية فآثرنا ان ننشر ترجمة رسالة السر جوزف طمسن العالم المشهور. قال:

٢

لا نعدو حدود الانصاف حين نقول ان اللورد بلفور يفوق كلَّ سياسيٍّ آخر في عنايته بترقية العلم وتشجيع القائمين بهِ واهتمامه بالاتصال الدائم بهم والاطلاع على نتائج مباحثهم. كان لورد الميزانية الاول لما شُرع في انشاء «المعمل الطبيعي الوطني» وقد كان لعطفه وتأييده اكبر اثر في اخراج هذا المعمل الى حيِّز الوجود. وقد كان ذا يد في تأسيس «مصلحة البحث الصناعي العلمي» وليث رئيس مجلسها سنين كثيرة. وكلُّ من اتصل بهذه المصلحة يعلم العناية العظيمة التي كانت تبدو منهُ باتمامها وما هي مدينة بهِ لارشاده وعطفه، لان رجالها كانوا واثقين بانهم يستطيعون الاعتماد عليهِ في حلِّ ما يقوم في وجههم من المشكلات. ما من رجل كان يستطيع ان يبذل يدهُ في كياسة وكرامة مثلهُ. وما يصحُّ على علاقته بمصلحة البحث الصناعي والعلمي يصحُّ على علاقته بمجلس البحث الطبي

كان اللورد بلفور من روَّاد الداعين الى تطبيق البحث العلمي على الشؤون الصناعية. أشار الى ذلك في خطبة سدجوك التذكارية التي خطبها سنة ١٩٠٨ قال: «من الواضح في رأيي ان على هذا - اي تطبيق البحث العلمي على الشؤون الصناعية - يجب أن نعتمد في تحسين الاحوال المادية التي تعيش فيها الجماعات الانسانية». ولم تحصر فائدة البحث العلمي عنده

في دائرة الشؤون الصناعية، بل عدّها الى غيرها . لأنهُ يقول في الخطبة نفسها : « العلم هو اداة التحوّل الاجتماعي العظيمة . وعظمة هذه الاداة تزداد لا لأن غايتها ليس التحوّل بل المعرفة . واختصاصها بهذه الوظيفة في اصطخاب النزاع السياسي والديني اعظم الثورات التي تميّز بها ارتقاء الحضارة الحديثة »

لقد كان حبهُ للعلم وميلهُ اليهِ يجريان مجرى الدم في عروقهِ . فلقد كان خالهُ السياسي الشهير اللورد سالسبوري ممتازاً بين رجال السياسة بميوله ومباحثه العلمية حتى لقد انتخب لرآسة مجمع تقدمُّ العلوم البريطاني المنعقد في اكسفرد سنة ١٨٩٤ الذي أعلن فيهِ اللورد ريلي والسر وليم رمزي اكتشافهما لغاز الارغون . وكان أخوهُ فرنك من أبرع علماء المورفولجيا البريطانية قبلما بلغ الثلاثين من العمر فلما توفي في الحادية والثلاثين من عمره فقدت بهِ جامعة كمبردج عالماً لا يعوّض

واذا صرفنا النظر عن عناية اللورد بلفور بالعلم كقوة اجتماعية وصناعية وجدنا انهُ عني بهِ عناية خاصة من الوجهة الفلسفية . وبقي متصلاً بارتقاء المباحث الحديثة لتطبيق آرائهِ الفلسفية عليها . انتخب عضواً للجمعية الملكية سنة ١٨٨٨ وعين عضواً في مجلس ادارتها مرتين . وانتخب رئيساً لمجمع تقدمُّ العلوم البريطاني سنة ١٩٠٤ فألقى فيهِ خطبة فلسفية علمية بليغة أثبت فيها المامهُ بمسائل الطبيعيات الجديدة[1] . لقد كان التحدث معهُ في الموضوعات العلمية متعةً عقليةً لانهُ كان سريع الخاطر في إدراك المسائل التي يدور عليها البحث موفقاً في اختيار النقط الأساسية فيها زكناً في التكهّن بما قد تسفر عنهُ المباحث المقبلة

وسنة ١٩١٩ اختير خلفاً للورد رولي أمناً لجامعة كمبردج فنظر [illegible] في تحسين الطرق لبناء دار « المكتبة » الجديدة التي يحسب بناؤها اعظم حدث في تاريخ تلك الجامعة

وكان قبل ذلك قد كتب رسالة موجزة عن وجوب ايجاد منصب لاستاذ في موضوع « الوراثة » فجعلت هذه الرسالة محسناً فضل أن يبقى مجهولاً على وقف المال اللازم لهذا المنصب مشترطاً أن يدعى منصب الاستاذ باسم « ارثر بلفور »

***

وقد شغل اللورد بلفور في اثناء حياتهِ منصب امين جامعة ادنبره مدة ٣٩ سنة وامين جامعة كمبردج احدى عشرة سنة ونال القاباً علمية من ست عشر جامعة ودعي لالقاء خطبة جفرد وخطبة رومانيس التذكاريتين ونال وسام ربطة الساق ووسام الاستحقاق وكان مولعاً بالموسيقى وخصوصاً مؤلفات هندل وباخ فكان من هذا القبيل شديد الشبه باينشتين

(١) يجد القارىء ترجمة وافية لهذه الخطبة في كتابنا « العلم والعمران » صفحة ٨٥